ملخّص المحاضرة :المتخيَّـل وصناعة التاريخ الإسلامي

د. بسّام الجمل

كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة / جامعة صفاقس ـ تونـــس

نروم في هذه المداخلة تدبّر الأدوار التي ينهض بها المتخيّل L'imaginaire في صناعة التاريخ الإسلامي من خلال أغراض ممثّلة له. والقصد من ذلك التعامل مع الخطاب التاريخي الإسلامي تعاملا نقديّا تفهّميّا بعيدا عن كلّ أشكال الاحتفاء والتمجيد والتقديس. كلّ ذلك ضمن رؤية معاصرة للتاريخ بمقتضاه تعتبر أنّ ما يحصل في الواقع التاريخي هو، عند الفحص، إمكان من بين إمكانات أخرى عديدة كان من الممكن أن تحدُث لو توفّرتْ أسبابُها الموضوعيّة (أطروحة بول فاين Paul Veyne).

ونرى أنّ العلاقة وطيدة بين المتخيّل وصناعة التاريخ الإسلامي، إذ الجامع المشترك بينهما هو انشدادهما إلى المجتمع بكلّ قطاعاته وفئاته. فالمتخيّل، ههنا، هو بالأساس متخيّل جمعي ساهمت عدّة أجيال إسلاميّة في تشكّله على التدريج، وهو يعبّر عند القدامى عن التاريخ، بل إنّ المتخيّل عندهم هو عينُ التاريخ. بينما يميّز الدارس المعاصر بين خطاب المتخيّل وخطاب التاريخ. وتقتضي دراستهما، من منظور أنتروبولوجي، عدم تفضيل أحدهما على الآخر. أمّا التاريخ فهو غير خطاب التاريخ لأنّ أحداث التاريخ حينما تُروى باللّغة تُعاد بالضرورة صياغتُها في ضوء تداخل عدّة عوامل ومؤثّرات: ثقافة المؤرّخ وشواغله الواعية وغير الواعية...منهجه في التعامل مع الأحداث...انتظارات قرّائه...الوضع الإبستيمي للمعرفة في عصره.

وسنُعوّل في عملنا هذا على منهج ارتدادي نقوم، بالاستناد إليه، بالانتقال **من** التاريخ الإسلامي المتخيَّل مثلما روّجته المصادر الإسلاميّة القديمة والعديد من الدراسات الحديثة والمعاصرة **إلى** التاريخ الإسلامي مثلما يُرجّح حدوثه في الواقع ضمن حركة التاريخ التي يتحكّم فيها نظام من السُنن والقوانين و"قواعد العمران" على حدّ عبارة ابن خلدون. فالمسألة، ههنا، أشبه ما تكون بعمليّة الحفر الأركيولوجي، بمعنى اختراق طبقات مترسّبة من التاريخ الإسلامي المتخيَّل بحثا عن نواة الحدث الحاصل فعلا في التاريخ. ومثل هذا التمشّي المنهجيّ يُحْوِج إلى أن نطرح ثلاثة أسئلة مدارها جميعا على ذلك التاريخ الإسلامي المتخيّل، وهي على التوالي: ما الذي صُنع؟ وكيف صُنع؟ ولماذا صُنع؟

وبناء على كلّ ما سبق قوله، صحّ منّا العزم على أن نرتّب مداخلتنا على المحاور الثلاثة التالية:

I ـ التجلّيات

سندرس في هذا المحور مظاهر ممثِّلة لتجلّيات التاريخ الإسلامي المتخيّل من خلال العناصر التالية:

1ـ صناعة تاريخ المؤسِّس الديني: سيرة النبيّ.

2ـ صناعة تاريخ المؤسّسة السياسيّة: خلافة أبي بكر أنموذجا.

3ـ صناعة تاريخ المؤسّسة الدينيّة: أهل السُنّة والجماعة أنموذجا.

وسنسعى في هذا المحور إلى اختبار مدى وجاهة أطروحة الفيلسوف اليوناني والفرنسي كورنيلوس كاستورياديس Corneilus Castoriadis حين تجُرى على التاريخ الإسلامي، وهي أطروحة ترى أنّ كلّ مؤسّسة تتميّز بخصائص ثلاثة هي: الوظيفيّة والإلزاميّة والرمزيّة.

II- الآليّات

سننظر في أهمّ الآليّات التي تمّ استخدامها في صناعة التاريخ الإسلامي وهي التالية:

1- التحويل: أي إدخال تغييرات متعمّدة في الغالب على الأحداث الحاصلة في التاريخ لإنتاج خطاب عنها ينسجم مع المواقف الرسميّة والسائدة على أصعدة السياسة والدين والاجتماع. ويتمّ هذا التحويل إمّا بالقَلْب وإمّا بالتضخيم.

2- الإنتاج البَعْدي: أي ابتداع أخبار وروايات تُروّج بواسطتها أحداث لم تحصل البتّة في التاريخ، ولكن بحُكم تداولها من الفاعلين في المؤسّسة الرسميّة تصبح جزءا من تاريخ المسلمين ومن ذاكرتهم. وهذه الآليّة وُظّفَت في الكلام على سِيَر الشخوص التاريخيّين (الرسول...الصحابة...الخلفاء...العلماء..) وعلى المنعرجات الكبرى في التاريخ السياسي الإسلامي (الخلافة... "الفتوحات"... الدولة الإمبراطوريّة...) وعلى تاريخ العلوم الإسلاميّة (السيرة النبويّة... الحديث النبويّ... أسباب نزول القرآن...).

3- التهميش والإقصاء: أدّى تفعيل هذه الآليّة إلى الزجّ بقسم مهمّ من التاريخ الإسلامي في دائرة المسكوت عنه. ومن ثَمّ لم يَحْظ هذا القسم بأيّ اهتمام من لدُن علماء الإسلام لأسباب عديدة منها الخوف من جرح الوجدان الإسلامي أو من إحراج الضمير الديني السائد أو من تصدّع الإجماع أو من سقوط الأقنعة الدينيّة عن المؤسّسات السياسيّة والدنيويّة عموما أو من تغلّب مقالة الاجتهاد على مقالة التوقيف الإلاهي. والشواهد على ما نحن بصدده أكثر من أن تُحصى من نحو: عقيدة محمّد قبل البعثة... تبرير الاستبداد السياسي... التخلّص من الخصوم في المذهب والعقيدة... أسباب حروب الرِدّة... دوافع "الفتوحات" الإسلاميّة...

III- الدلالات

نعتقد أنّ توظيف مختلف ضروب المتخيّل (الديني، السياسي، الاجتماعي، التاريخي) في صناعة التاريخ الإسلامي العامّ ليس من باب الترف الفكريّ أو من باب حبّ التصرّف في المادّة التاريخيّة عبر مسالك القراءة والفهم والتأويل، بل إنّ ذلك التوظيف يُراد منه التعبير عن دلالات محدّدة تعكس الآفاق الذهنيّة للعلماء المسلمين وللمؤرّخين وللفاعلين السياسيّين وللمتصرّفين في المقدّس. وسنعمل في هذا المستوى من الدراسة على بيان ثلاث دلالات نراها مهمّة وهي:

1- النَمْذجة: أي خلق مناويل يُنسَج عليها وصناعةُ نماذج يُحتذى بها في السياسة والأخلاق والدين (السُنّة النبويّة... الخلافة الراشدة... الأنموذج العُمَريّ... الأنموذج العَلَويّ...).

2- الشَرْعَنة: أي العمل على تبرير ممارسات تاريخيّة واجتهادات بشريّة، وذلك بإدراجها تحت مقالة "المعلوم من الدين بالضرورة"، وهي مقالة تستند إلى فرض تأويل موجّه للنصّ الديني قرآنًا وسُنّةً. وهذه الشرعنة أُحتيج إليها على امتداد التاريخ الإسلامي في تشريع افتراق الأمّة الإسلاميّة مثلا، وفي تقنين العنف المادّي أو الرمزي الذي تمارسه سواء المؤسّسة السياسيّة أو المؤسّسة الدينيّة.

3ـ الأسطرة: تتجلّى هذه الدلالة في الأحداث التاريخيّة الإسلاميّة التي تمّ تمثّلها على نحو تكون فيه الإرادة الإلاهيّة فاعلة فيها سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عبر أعوان أو وسائط. ومن ثَمّ فإنّ التاريخ الإسلامي لا تصنعُه دائما وباطّراد إرادات الأفراد والجماعات، بل تصنعه الإرادة الإلاهيّة. والقصد من ذلك هو تحصين هذا القسم من التاريخ الإسلامي من إمكانات مراجعته مراجعة نقديّة أو من تفسيره حسب منطق التاريخ وقوانينه. والأمثلة على حضور الأسطرة في التاريخ الإسلامي عديدة جدّا من نحو: حضور الملائكة يوم بدر... معجزات النبيّ الحسيّة... السيَر المؤسطَرة مثل سيرة عليّ بن أبي طالب أو سيرة فاطمة ابنة النبيّ... استشهاد الحُسينْ... كرامات الأولياء... إيديولوجيا القَدَر الأمويّ...

****

سنقيم البرهان في هذه المداخلة، بعد استيفاء النظر في المحاور الثلا ثة السابقة، على أهمّية الملاحظات والاستنتاجات التالية:

ـ المتخيّل التاريخي هو في الحقيقة مكوّن أساسي من مكوّنات التاريخ الإسلامي سواء منه الشفويّ الذي يُتناقَل عبر الرواية ضمن الثقافة الشعبيّة بالخصوص، أو المكتوب الممثِّل في الغالب للثقافة العالِمة. وهذا المكوِّن جدير بالدراسة العلميّة دون تغليبه على سائر المكوّنات الأخرى من جهة، ودون إهمال النظر فيه بدعوى خروجه عن سُنَنَ التاريخ من جهة أخرى.

ـ إنّ الحاجة اليوم ماسّة لإعادة تفحّص التاريخ الإسلامي، وذلك بتفكيك عناصره وبالكشف عن تداخل الخطابات فيه. إذ أنّ التاريخ الإ سلامي المسرود أو المَرْوِيّ هو مزيج من الرؤى والتأويلات والتوظيفات والاختيارات. ومن البديهيّ أن يستأنس الباحث المعاصر بمناهج المقاربة المتاحة اليوم من أجل اقتراح قراءة جديدة للتاريخ الإسلامي تعيد المهمّش منه أو المُقْصى إلى دائرة الضوء، مثلما تعمل على إنطاق ما فيه من مسكوت، وبذلك يتحرّر التاريخ الإ سلامي من أوضاع الصمت والنسيان. فالمفهوم المعاصر للتاريخ لا يعترف مثلا بمقالة "المضنون به على غير أهله" أو بمقالة "إلجام العوامّ عن علم الكلام".

ـ بالإمكان الاستفادة في إعادة قراءة التاريخ الإسلامي من أعمال رائدة وتجاوزها في آن أُنجِزت داخل الفكر الغربي الحديث والمعاصر قام أصحابُها بدراسة التاريخ الأروبّي، وتوصّلوا إلى نتائج مهمّة في هذا الغرض. ويكفي أن نذكر أعمال المؤرّخ الفرنسي المعروف جاك لوغوف Jacques Le Goff في قراءته المتميّزة للمتخيّل التاريخي في العصر الوسيط الأروبّي.

ـ حينما نُخضع التاريخ الإسلامي للدراسة العلميّة فإنّنا سنفهم جيّدا كيفيّة اشتغال الذهنيّة الإسلاميّة وهي تفكّر في شؤون السياسة والاجتماع والمعرفة والقيم والدين. ولذلك يمثّل التاريخ الإسلامي بحقّ الذاكرة الجمعيّة للمسلمين بكلّ ما تتضمّنه من إنجازات وإبداعات، أو من آلام وخيبات، أو من أحلام وأمنيات. ومن ثَمّ فإنّ الذاكرة والتاريخ متعالقان ولربّما أوجدتهما المجاورة للمحاورة.